المقدمة

هذا الكتاب الذي بين أيديكم هو نوع من كتابة التاريخ الذي تصنعه شهوة النساء للمال والسلطة وتدمر من أجل ذلك أمما وممالك وتقتل في سبيل ذلك ملايين البشر ، قد تكون قصصا مسلية لكنها تحمل مآسٍ مروعة .

وقد آثرت في هذا الكتاب أن أدخل في حقول ألغام خشي الكثيرون الدخول فيها أو تسميتها بأسمائها ، فالكيد والمكر مذكوران في القرآن الكريم وفى بيوت الأنبياء .

فالله سبحانه وتعالى قال في كتابه العزيز: ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٣٠] ، وقال أيضا أن الكفار: ﴿ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴾ [الطارق: ١٥ - ١٦] ، ولكن هيهات والكيد لا يقتصر على النساء كما يدعى الكثيرون ولكن جميع البشر يكيدون ويمكرون مع اختلاف الأهداف والسبل ، لكن الكيد اقتصر على النساء لأنهم لا يملكون غيره ، وقد استخدم الجميع قول الله في سورة يوسف: ﴿ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ [يوسف: ٢٨] ، ولعل أكثر سور القرآن التي تبرز الكيد هي سورة يوسف ، فامرأة العزيز تكيد ليوسف وتكيد لنساء المدينة وأخوة يوسف يكيدون له وهو يمكر لهم .

الكيد وسيلة لتحقيق هدف قد تكون مشروعة من وجهة نظر مستخدمها وقد تكون للدفاع عن النفس ، ولكن النتائج في النهاية كانت كارثية ، فمصر أكل أهلها الحمير والقطط والكلاب ولحوم البشر بسبب الكيد والسعى لامتلاك السلطة ، وروما احترقت وممالك عديدة أبيدت وجاع أهلها .

هذا الكتاب ليس مجرد قصص كما قلت في البداية ، إنه التاريخ ملطخ بالعار وإن شاء الله في الطبعة التالية سيضم عددا آخر من المكائد التي دمرت دولا وشردت وقتلت خلقا بعقول النساء وسلطة وقوة الرجال .

المؤلف

مارس ٢٠١٢

* * *

obeikan.com

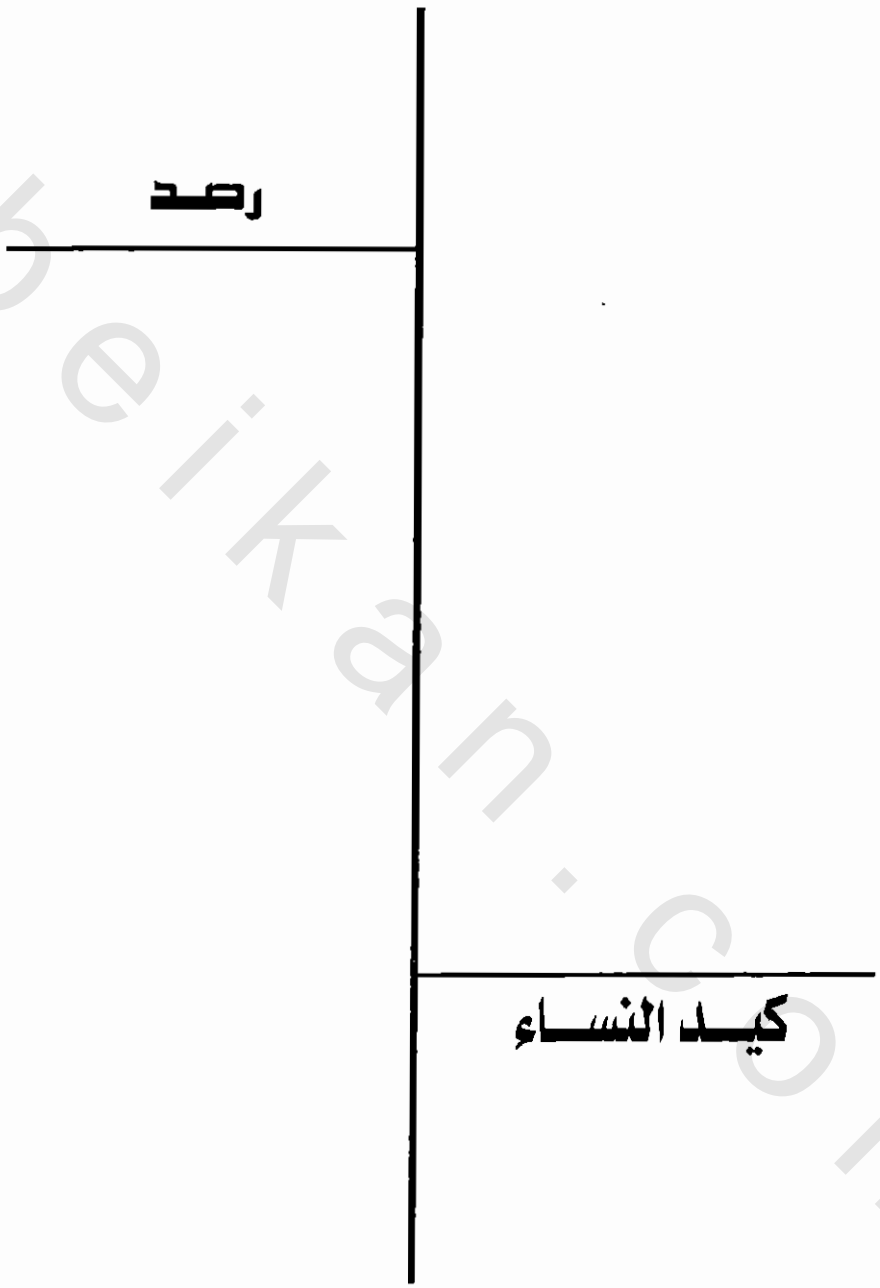

obeikan.com

obeikan.com

رصد

كانت رصد جارية لأبى سعيد التسترى اليهودى ، وكان يدرك ما هي عليه من حسن وبهاء يأسر القلوب ، فسعى لاستثمارها أفضل استثمار بعرضها على الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله ، وبهذا يضرب كل أسراب العصافير بحجر واحد ، فيقبض فيها أعلى ثمن ويضمن ببلوغها هذه المكانة اتصالا دائما بقصر الخلافة ، أما إذا استطاعت البلوغ إلى ما هو أبعد من ذلك!! ففى كل خطوة تتقدمها خير لكليهما .

وكان للتسترى ما أراد حيث وقعت الجارية الجميلة الطموحة في قلب الخليفة فاشتراها وصارت فيما بعد أحب جواريه إليه ، وزاد إيثاره لها حين أنجبت له ابنه المستنصر .

أصبحت شوكة التسترى سيفا بما بلغته رصد من مكانة كانت تدين بها إليه ، وبالتالى لا ترد له طلبا ولا تتأخر عن مناصرته وهو ما جعله يتجرأ على كبار رجال الدولة ، وقد وقع خلاف بينه وبين الوزير أبى على الحسن بن على الأنبارى الذي أسار إلى أبى تمر أخى التسترى لجنوحه هو الآخر وطغيانه لثقته أنه مسنود الظهر بجارية الخليفة وأم ولده ، وكانت النتيجة أن عُزل ابن الأنبارى وصودرت أمواله وأودع السجن وبقى به حتى مات في سجنه .

ومات الخليفة ولم يكن ابنه المستنصر قد بلغ من العمر سوى سبع سنوات وبالتالى سوف يتولى الخلافة لتجد (رصد) نفسها وصية على ابنها الخليفة الصغير بعد أن كانت جارية ، ولأنها تعلم أنها بلغت ما بلغته بالمكائد فقد اختارت نفس الطريق لتسير فيه وتدبر بما اقتنعت به أمور الدولة وهو الكيد .

اطمأن التسترى أن الأمور أصبحت كلها بيده فأخذ يبطش

بالمسلمين ويقوى شوكة اليهود في مصر حتى أصبح الوزير الذي يعينه المستنصر مجرد منصب شرفي بينما التستري هو الذي يقوم على كل الأمور حتى أصبحت المكائد هي الصفة الشائعة لتدبير عظائم الأمور وصغارها في قصر الخلافة .

حين تولى الفلاحي أمور الوزارة ورأى كيف تدار أمور الدولة استخدم نفس السلاح للخلاص من التستري واستغل أحداث الشغب بين الأتراك والمغاربة ووفاة الخادم عزيز الدولة ريحان فأشاع بين الناس أن التستري هو الذي قتله بالسم فتربص له ثلاثة من الأتراك وهو متجه إلى قصر الخلافة كعادته في كل يوم وضربوه حتى مات .

غضبت رصد لمقتل أستاذها وسبب ما هي فيه من نعمة وطلبت من ابنها الخليفة أن ينتقم من قتلته لكنه لم يتمكن من الظفر بهم أو النيل منهم لأن التستري كان مكروها والجميع ناقمون عليه ، فادعت كل الطوائف مسئوليته عن قتله ، ومما يدل على شدة الكراهية له محاولة الجميع نسب هذا الشرف إليهم ، ليس هذا فقط بل إنهم مثلوا بجثته ومزقوه حتى تناثر جسده في الشواع ، وجمع البعض ما وجدوه وأشعلوا فيه النار ثم أهالوا عليه التراب ، لكن أهله استطاعوا شراء ما تبقى وأمكن جمعه من جسده ووضعوه في نعش وأحاطوه بالشمع وتركوه في مكان منعزل لكن النار أرادت أن تشارك الناس كراهيتهم للتستري وتخبر أهله بمصيره فامتدت لتحرق ما جمعوه من جثمانه ، ويعبر الشاعر عن هذه الكراهية قائلا:

يهود هذا الزمان قد بلغوا ::: العز فيهم والمال عندهم
يا أهل مصر إني قد نصحت لكم ::: غاية آمالهم وقد ملكوا
ومنهم المستشار والملك ::: قودوا قد قود الفلك

لم تتعظ رصد بما حدث للتستري ، بل اعتبرته تحديا شخصيا لها ، ولم تعبأ بغضب الشعب وكراهيته للتستري وحاشيته ، بل أمرت ابنها

الخليفة الصغير الضعيف بتعيين أخاه أبا نصر ديوانه الخاص وأن يجعل لولديه النظر في بعض الدواوين ، ولم تكتف بذلك!! بل عزلت الوزير الفلاحى وأمرت بالقبض عليه وإيداعه السجن ، لكن يبدو أنها لم تجد أن كل هذه الإجراءات الدكتاتورية الظالمة كافية للرد على غضب الشعب وظلم اليهود فأمرت بتعذيب الوزير الفلاحى في السجن للانتقام منه .

ليس هذا فقط بل بلغ بها الجبروت أن تأمر بأن يقوم الفلاحى بحفر قبره ثم قتله بعد ذلك .

وجدت رصد في أبى محمد اليازدرى الشخص الضعيف الذي يمكن أن تحركه كالدمية وهو متفان في خدمتها وكان يعرف قدره جيدا ، فيقوم للوزير والأمراء وكبار رجال الدولة لإحساسه بدونيته أمامهم ، لكنه أرادت صنع دميتها كما تراءى لها فأمرته ألا يقوم لأحد مهما علا قدره وفعل ذلك لأنه لم يكن ليخالفها لكنه لم يكن يستطع تجاهل رب نعمته الذي أتى به إلى القصر وهو القائد عدة الدولة ، وعلمت رصد بذلك فأمرته ألا يقوم لأحد مهما كان شأنه .

انتفخ البالون وأصبح يجلس في مجالس الخليفة ويتحدث باسمه حتى بلغ الأمر أن لقب نفسه بالمكين عمدة أمير المؤمنين .

عاد التسترى باسم جديد هو اليازردي ليعيد التاريخ نفسه دون أن يستفيد من الماضى وما حدث للتسترى ، ففكر الوزير الجرجانى في التخلق من اليازردى وأخذ يكيد له في محاولة لإبعاده ولم يفكر في قتله خشية انتقام رصد ، فأشار على الخليفة أن يقلده القضاء ليبعده عن ملازمة رصد ، وكانت حجته في ذلك أن القضاء معطل وسيئ السمعة ولا يصلح لتقويمه سوى اليازردى ، وبذلك يظهر وكأنه يقدره بطلب هذا المنصب الكبير له ، وأنه يثق به لعظم المسئولية التي يكلف بها لكنه

كان في الحقيقة يرى أن قربه من رصد هو الذي يدعم موقفه ويقويه ، وكان اليازردى يدرك ذلك ويرى أن وجوده في خدمة رصد وقربه منها أفضل من أى منصب حتى وإن كان منصب القضاء ، ورغم أنه كان محموما لا يقدر على الحركة هرع إليها وأخبرها أن هذا المنصب ليس سوى محاولة لإبعاده عنها وحرمانه من خدمتها ، واقتنعت رصد برأيه فردت المكيدة بأعظم منها ، فأمرت بأن يتولى القضاء يومين ويبقى في خدمتها بقية أيام الأسبوع ، وفوتت بهذا الفرصة على الوزير ، فانحنى وقبل الأرض بين قدميها وانصرف شاكرا لها إنعامها عليه ببقائه في خدمتها بعد أن ضمن منصب القضاء ، وضمانا لقربه من رصد في يومى القضاء عين ابنه مكانه في هذين اليومين ولم تكتف رصد بذلك بل أمرت بعزل الوزير والقبض عليه ثم نفته بعد ذلك إلى دمشق .

علت مكانة اليازردى - الدمية التي صنعتها رصد - حتى أصبح وزيرا بالإضافة إلى كونه قاضى القضاة والناظر على ديوان رصد ، وطالت مدته وازداد جبروته فازداد أعداءه وكارهيه الذين كادوا له عند الخليفة وساعدهم في ذلك كبرياؤه وصلفه فعزله من كل مناصبه وأمره بالقبض عليه ومصادرة أمواله ونفيه إلى "تنيس" وفى المنفى دبر له الوزير الجرجانى من منفاه في دمشق لقتله والخلاص منه وتخليص البلاد من شره .

انصلحت الأحوال في مصر بعد استقرار الأمور بها بعد الخلاص من اليازردى حتى أن الرحالة الفرسى (ناصر خسرو) ذكر في كتابه (السفرنامة): "وكان أهل مدينة مصر في غنى عظيم ، وكان الناس في غنى عظيم لا يخشون الجواسيس ولا الغمازين معتمدين على أن السلطان لا يظلم أحدا ولا يطمع في مال أحد" وفى موضع آخر يقول: "ورأيت أموالا يملكها بعض المصريين لو ذكرتها أو وصفتها لما صدقنى الناس في فارس فإنى لا أستطيع أن أحدد أموالهم أو أحصرها ، أما

الأمن الذي رأيته هناك فلم أره من قبل"، ويواصل: "بل وكان هناك من يملك من الغلة ما يمكنه من إطعام أهل مصر آنذاك ست سنوات كاملة".

لكن السيدة رصد استكثرت الخير والنعمة التي تعيش فيها البلاد التي كانت تعود بلا شك عليها بالأموال والخيرات وبدلا من أن تعمل على زيادة هذا الرخاء فتثبت الأمن وتزيد من الإصلاحات وتحسن الخدمات، أخذت تشترى العبيد وتغدق عليهم الأموال ليكونوا قوة لها في مواجهة الأتراك التي كانت لا تخفى كراهيتها لهم وربما كانت تفكر في إبعادهم عن مواقع السلطة أو التخلص منهم.

أصبح كل عبد من الذين جلبتهم رصد يتمتع بسلطات جعلته يتصور نفسه أحد الولاة وبلغ الصدام بينهم وبين الأتراك حد الاشتباك المسلح وكان ذلك يروق رصد التي كانت تزكى هذه النار وتمد العبيد السودانيين بالمال والسلاح فكانوا في بعض الأوقات يتغلبون على الأتراك الذين ساروا إلى الخليفة يشتكون إليه ما تفعله أمه فحاول الإصلاح بين الطائفتين، وتمكن بمساعدة الوزير أبى الفرج بن المغربى من ذلك، لكن فيما يبدو أن الإصلاح أو الاتفاقات كانت ظاهرية بينما القلوب مغلقة على ما هي عليه من كراهية تشعلها رصد حتى تحول الأمر إلى حرب أهلية أنفقت فيها رصد مليونا دينار في تجهيز العبيد بالسلاح.

شعر ابن حمدان قائد الترك باستفحال الأمر وبالخطر الداهم الذي يشكله السودانيون ومن ورائهم رصد، فأصر ألا ينزل عن حصانه في حربه مع السودانيين إلا منتصرا أو مهزوما حتى ينهى هذه المأساة وبالفعل انتصر عليهم وقتل الكثيرين منهم.

استنزفت هذه الحروب الكثير من أموال الترك فتوجهوا إلى الخليفة

فأخذوا أمواله وأموال وزيره ولم يتركا لهما شيئا ولما لم يجدوا لديه أموالا في حين تمد أمه العبيد بالأموال لشراء السلاح ، فأخذوا مقتنيات الخليفة من الجوهر والأحجار الكريمة ، بل ومتاع بيت الخلافة حتى مقتنياته التي ورثها عن آبائه وأجداده ، وباعها ليعطيهم ما يريدون من أموال وقودا للحرب الأهلية التي أزكتها رصدا بمكائدها ، ولم تتوقف عن إمداد العبيد بالأموال لشراء السلاح حتى تمكنوا من هزيمة الترك وأجبروهم على الانسحاب إلى الصعيد (الجيزة) .

لم يتقبل الأتراك الهزيمة واستطاعوا الحصول على ما قيمته مليون دينار هو ما تبقى لدى الخليفة من ممتلكات وباعوها لتعويض خسارتهم والتزود بالسلاح وضاعف بالتالى هيبة المستنصر الذي لم يعد يملك شيئا ، وانتشر الرعب والنهب والخطف العلنى وعم الخراب وأغلق الناس دكاكينهم التي نهبت وضاعت تجارتهم ، ومات الزرع في الأرض التي أصبحت جرداء لعدم زراعتها ، أو الاهتمام بها بسبب خوف الناس وعدم خروجهم من بيوتهم حتى أن الناس من شدة جوعهم كانوا يأكلون القطط والكلاب التي وصل ثمن الواحد منها خمسة دنانير ، ليس هذا فقط بل إنهم أكلوا الميتة وكانوا يخطفون الناس من الشوارع ويذبحونهم ويأكلونهم .

أما الخليفة الضعيف الذي تسببت أمه في كل ذلك بسبب ضعفه فلم يعد يملك حتى قوت يومه لدرجة أن ناصر الدولة كبير الترك أرسل إليه مرة (قاصر بنى حمدان) يطالبه بالأموال فوجده يجلس على حصير بغير فرش ولا أبهة وليس عنده من الخدم سوى ثلاثة وقد زال ما كان يعهده من شارة الملك وعظمة الخلافة ، وخرج ناصر الدولة من عنده يبكى لحاله ، وأخبر بذلك ناصرا لدولة فصار يرسل إليه في كل شهر مائة دينار ، وكانت الشريفة بنت صاحب السبيل حين ساءت أمور الخليفة تتصدق عليه في كل يوم بقعب من فتيت ولم يكن له قوت سواه مرة

واحدة كل يوم وليلة حتى أجرى عليه ناصر الدولة تلك الدنانير المائة .

ولما زاد الفقر بالناس وساء الحال خرجت النساء ناشرات شعورهن يصحن الجوع . . الجوع فتسقط الواحدة منهن تلو الأخرى من الجوع والإعياء ، وتموت في الوقت الذي يتدفق فيه النيل والأرض لا تجد من يزرعها بسبب ما أحدثته رصد من فتنة في البلاد واستمر الوضع على ذلك سبع سنوات بدءا من سنة ٤٥٧هـ وسميت بالشدة المستنصرية .

لكن ماذا كان مصير رصد وإلى أى مصير جرتها مكائدها؟

تمت مصادرة أموالها وقبض عليها لكنها تمكنت من الهرب إلى بغداد ، وظل الخليفة الضعيف فقيرا وحيدا يترقب نهايته حتى أرسل لوالى عكا الذي جاء لنجدته ، وبالفعل جاء بجيوشه وهزم الأتراك وقتل ناصر الدولة ، ولكن بعد خراب البلاد وهلاك العباد .

* * *